قسطنطينية والمطامع حولها

اذا كان الشرق الادنى بمثابة قلب الكرة الارضية فان البلد القائم مقام الكف حيث يتلاقى ساعدا اسيا واوربا ومقام الشفاه حيث يتراشف البحران الابيض والاسود ذلك البلد المحصن برًّا بوادي الدانوب وجبال البلقان وبحرًا بالبسفور ومرمرا حري بان يعتبر سويداء ذلك القلب

بل ان قسطنطينية بما هي عليهِ من المقام الممتاز سواء من حيث الماديات والمعنويات فضلاً عن جمالها ومنعتها الطبيعيين حرية بما قال عنها نابليون « لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت قسطنطينية اصلح المدن لتكون عاصمة لها »

مقامها الادبي

اذا دققنا في الغاية التي بنى اليونان لاجلها مدينة بزنطة وفي السبب الذي دفع قسطنطين الروماني من بعد لتشييد قسطنطينية على انقاضها قدّرنا ما لهذا الثغر من الاستعداد لنشر الآراء والمعتقدات . فقد روى المؤرخون ان اليونان القدماء اختاروا ذلك المركز لانشاء مدينة بزنطة عام ٦٥٨ ق.م كي تكون مساعداً لهم على بث اللغة والمبادىء الهيلانية الى بعيد . وان قسطنطين كان في جملة ما حبب اليهِ تصيير هذه المدينة والانتقال اليها من روما عام ٣٣٠ م حرصهُ على تأييد المسيحية وانتشارها . وقد احسن بذلك صنعاً لان فضلاً عن حمايتهِ اتباعها من تعدي اهل روما فقد صارت قسطنطينية كأنها كوكب دري تشع انوارهُ في مختلف الامصار

مقامها السياسي

على انهُ مهما كان من الغاية التي بنى لاجلها اليونان قسطنطينية وما سلفها من المدن في ذلك المكان فلا شك بان السياسة الحربية هي المحور بل هي غاية الغايات. ذلك ان اوربا كانت في حروب متصلة مع الشرق وليس افضل من مقام قسطنطينية لملوكها سواء كانوا من الفاتحين او المدافعين

فهي للفاتح رابض قريبة من آسيا للهجوم وللمضيف حصن منيع في طرف المملكة بل بمثابة السور الذي يكتنفها

وهكذا كانت لكل من الرومان الشرقيين وخلفائهم البيزنطيين فضلاً عن أنها سهلت لهم بسط نفوذهم على البحر المتوسط الذي كان محور التمدن ثم هكذا صارت للعثمانيين من بعدهم حتى ساعدتهم لان يصبحوا مدة اسياد البر والبحر

فمن قسطنطينية بسط الترك سلطانهم على اوربا الشرقية حتى احاطوا بفينا ثلاث مرات . ومنها جرت اساطيلهم تغزو بعض جزر البحر المتوسط وسواحله حتى اوقعت الرعب في اواسط اوربا فضلاً عن اطرافها

وما كان للترك قبل استيلائهم على عاصمة البيزنطيين عمارة بحرية ولكن لم يمض على ذلك حين من الدهر الا وصارت لهم سيادة البحار. فقد تغلبت دولتهم في حكم بايزيد الثاني على اسطول البندقية التي كانت تعد وقتئذٍ عماد الدول البحرية العظمى . ثم انتصرت انتصاراً عظيماً على اساطيل الدول المتحدة عام ٩٤٥ هـ — ١٥٤٧ م وفضلاً عن ذلك فانها تمكنت ان تجعل من ثم البحر الاسود كأنهُ حوض عثماني صرف لا اثر للاجنبي فيهِ ولا حولهُ وذلك ما حدا بفاليزين معتمد القيصر بطرس الاكبر في الباب العالي ان يكتب عنهُ ما يأتي :

« ان السلطان يعتبر البحر الاسود كمدارهِ الخاصة حيث لا يباح الدخول لاجنبي اليهِ او كمذراه في خدرها بين حرمهِ وهو يختار الحرب على ان يسمح لمراكب الاجانب ان تمخر فيهِ » (١)

على انهُ لما كان رب البيت ادرى بالذي فيهِ خبرنا دليلاً على مقام قسطنطينية السياسي ما اوردهُ الوزير جودت باشا بحثاً عن استفادة دولتهِ منها حيث قال : « لما فتحت الدولة العلية الاستانة استقر لها المقام فيها فبلغت سطوتها درجة الكمال واستكملت اسباب الغلبة على سائر دول اوربا في مدة يسيرة . ولو لم يساعدها القدر على فتح القسطنطينية لما استطاعت ان تبلغ هذه القوة وهذا الاقتدار » (٢)

مقامها الاقتصادي

ان مركز قسطنطينية الجغرافي افصح من القلم في تبيان مقامها الاقتصادي ولذلك فلا ترانا في حاجة للاسهاب في هذا الشأن بل كفانا ذكر ما قالهُ بلانشت فيها: « ان مرفأها الفخم في القرن الذهبي كان محور تجارة العالم طرًّا فبتماسها السهل

(١) Pinon l'Europe et l'empire ottoman P 171.
(٢) تاريخ جودت . ج ١ ص ٤٢

مع كل من اوربا بطريق الدانوب الراسمة وافريقية بوادي النيل واسكندرية وآسيا التي لم تكن مفصولة عنها بغير مجاز بحري كانت مستودع الثروات وسوق كل من الشرق والغرب الكبرى[1]

مقامها الطبيعي

وما مقامها الطبيعي ولاسيما من حيث الجمال والمنعة معاً في حاجة الى الوصف. فمن ذا الذي لا يعلم ذلك ولا يعرف جمال البوسفور ومنعة الدردنيل اما بالسمع او بالعيان. هذا وحسب قسطنطينية لتكون رائعة في جمالها عظيمة في منعتها ولو لم تتعهدها ايدي البشر موقعها الطبيعي

المطامع حولها

مدينة الى هذا الحد فائقة في جمالها ومقامها الحربي والادبي وممتازة في مكانتها سواء منها السياسية والاقتصادية لابدع ان تصبح هدف انظار الفاتحين ومحط آمال الطامعين

وكان اول من حاصرها زابركان الزعيم البلغاري ولكن باليوز استطاع ان يدفع اولئك البرابرة بمساعدة الاهالي رغماً عن قلة الاجناد (٥٥٩م). ثم تعرض لحصارها بعد جيل من ذلك خسرويه شاه الفرس (٥ ه = ٦٢٦ م) ولكن هرقل استطاع ان يجبره على الانسحاب[2] متخلياً عن امصار واسعة امتلكها فكان ذلك مصداقاً للآية الكريمة التي وردت تبشيراً للمسلمين حين شمت بهم كفار العرب لانكسار اصحابهم الروم اهل الكتاب وهي (الم. غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد)

على ان مسلمي العرب وان كانوا اميل الى الروم من الفرس لان اولئك اهل كتاب مثلهم الا انهم لما صاروا للفتح استوى عندهم الجميع وصارت عاصمة البيزنطيين هدف امانيهم الاساسية

العرب وقسطنطينية

اورد محمد بك فريد في كتاب تاريخ الدولة العلية ان العرب حاصرت قسطنطينية سبع مرات عدّدها فقال: «حاصرها معاوية في خلافة سيدنا علي سنة ٣٤ ه

(١) Bianchet: Hre. du Moyen Age P 80.
(٢) Nouveau Laronese illustré T. III. P. 221.

(٦٥٤ م) وحاصرها يزيد بن معاوية سنة ٤٧ هـ (٦٦٧م) في خلافة سيدنا علي ايضاً وفي سنة ٩٧ هـ (٧١٥م) حاصرها مسلمة في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز الاموي وحوصرت ايضاً في خلافة هشام سنة ١٢١ هـ (٧٣٩ م) وفي المرة السابعة حاصرها احد تواد هارون الرشيد سنة ١٨٢ هـ (٧٩٨ م) . »

ويظهر ان في روايته سهواً . ذلك ان حصار العرب اياها كان عام ٤٨ في خلافة معاوية وليس ٤٧ في خلافة علي لان خلافة علي استمرت منذ ٣٥ هـ الى ٤٠ وكذلك فان حصارهم اياها الثالث كان عام ٩٨ هـ في خلافة سليمان بن عبد الملك وليس عام ٩٧ في خلافة عمر بن عبد العزيز لان خلافة ابن عبد العزيز استمرت من سنة ٩٩ الى سنة ١٠١ للهجرة

وانهُ فضلاً عن ذلك فانهُ لم يتأكد لديَّ محاصرة العرب القسطنطينية اكثر من اربع مرات كما يأتي

(اولاً) في خلافة علي حاصرها معاوية بن ابي سفيان (١) (٣٤ هـ ٦٥٤م)

(ثانياً) في خلافة معاوية حاصرها سفيان بن عوف (٤٨ هـ ٦٦٨ م) فقتل وقتئذٍ ابو ايوب الانصاري (٢) ودفع العرب عنها قسطنطين بوكونا

(ثالثاً) في خلافة سليمان بن عبد الملك حاصرها اخوه مسلمة (٣) (٩٨ هـ ٧١٧ م) فانقذها قيام آل ايزوريان على عرشها

(رابعاً) في خلافة المهدي حاصرها اخوهُ هارون الرشيد ١٦٥ هـ ٧٨١ م فافتديت بسبعين الف دينار كل عام (٤)

ولكن مهما يكن من عدد المرات التي حاصرها العرب فيها فهي قد لبثت محتفظة باستقلالها . وساعد على ذلك انصراف العرب عنها بعد الامويين لاشتغال العباسيين بالعمران والعلوم مكتفين بما صار لهم من بسطة الملك

الافرنج وقسطنطينية

على ان مدينة قسطنطين الجميلة وان انصرف عنها العرب بعد ان حاصروها مراراً فانها لم تستريح من بعد من مهبة مطامع الفاتحين . ذلك انهُ لما عجز عنها الشرق حيناً شرع الغرب يتعرض لها . ابتدأ الروس فاغاروا عليها في عهد ميخائيل الثالث

(١) ابن الاثير ج ٣ و Hre. de l'Empire ottoman P 99
(٢) ابو الفداج ١ ص ١٨٦ (٣) ابن الاثير ج ٥ ص ١٢ (٤) المذكور ج ٦ ص ٢٧

٢٢٨ — ٢٥٣ هـ ٨٤٢ — ٨٦٧ م ولاووك السادس (١) ٢٦٩ — ٢٩٩ هـ ٨٧٨ — ٩١١ م ثم عاودوها عام ٤٣٥ هـ — ١٠٤٣ م فلم يفلحوا بكل غزواتهم اكثر من العرب (٢) . وذكر ابو الفدا ايضاً ان الصقالبة حاصروها سنة ٢٨٣ هـ ٨٩٦ م . ولما لم يجد ملك الروم منهم خلاصاً جمع من عنده من اسارى المسلمين واعطاهم السلاح فكشفوهم وازاحوهم عنها (٣)

غير ان قسطنطينية التي استطاعت بالقوة ان تدفع عنها كل طامع لم تلبث فيما بعد الاّ قليلاً حتى خضعت للغريب بغير حرب (٤) وكان ذلك مصداقاً لما ورد في الانجيل الكريم « كل مملكة تنقسم على نفسها تخرب »

ذلك انهُ لما خلع الكسي الثالث اخاهُ اسحق لانج عن عرش الروم استنجد هذا ببدوين دوفلاندر احد زعماء الحملة الصليبية الرابعة لما وصل الى البندقية ليجتاز منها الى فلسطين فلباهُ واعادهُ الى عرشهِ ولكن موت اسحق بعد قليل اخلى العرش الى بدوين وهكذا تغلب اللاتين ٥٧ عاماً على قسطنطينية (٥) ٦٠٤ — ٦٦٠ هـ = (١٢٠٤ — ١٢٦١) وكان هذا التغلب السياسي فاتحة عهد لتغلب حربي حظي به الترك بعد قرنين

الترك وقسطنطينية

جوهرة ثمينة متهدلة على نحر المجد تشخص اليها الانظار . هكذا كانت عاصمة البيزنطيين . ولذلك فان كل امة كانت تشعر بنفسها القوة تهب لاقتباطها ولكن طالما حاول عبثاً الطامعون حتى اذا تغلب الترك على ديار الاسلام وولوا وجوههم كسواهم شطرها خدمهم الحظ فافتتحوها

وقد لوحظ طمعهم فيها منذ تشكيل سلطنة السلاجقة فان مؤسسها ارطغرل باك سيّر الشريف ناصر الدين بن اسماعيل رسولاً الى ملكة الروم فاستأذنها في الصلوات الخمس بجامع قسطنطينية جماعة يوم الجمعة فاذنت لهُ في ذلك فصلى وخطب للامام القائم العباسي . وكان رسول المستنصر العبيدي صاحب مصر حاضراً فانكر

(١) مرآة الايام ص ٢٤٧ (٢) ابن الاثير ج ٩ ص ٢٧٤
(٣) ابو الفدا ص ٢٦٢ (٤) ابو الفرج ص ٣٩٦
(٥) Larousse illustre' P. 1018.

ذلك وكان من اكبر الاسباب في فساد الحال بين المصريين والروم (١)

ثم كان انتصار خلفه الب ارسلان على البيزنطيين واسره امبراطورهم ارمانوس وتزويجه ابنهُ من ابنته وسيلة لزيادة مطامع الترك في دار السعادة وبسط نفوذهم عليها ولاسيما لما كان من اعتقادهم بما هنالك لعائلة الزوج من الحقوق في ارض الزوجة (٢) . ولكن لم يتمّ للسلجوقيين ما ارادوا لما نشب بينهم من الانشقاق العائلي . وانما تركوا تحقيق ذلك الى العثمانيين الذين نشأوا على انقاضهم . وورثوا تلك الامنية في جملة ما ورثوهُ من املاكهم وتقاليدهم . لا بل ان العثمانيين مذ كانوا امراء تحت سلطة سلجوقي قونيه ولوا وجوههم شطر الامبراطورية البيزنطية

اتخذ العثمانيون عواصم متعددة لهم . فانتقلوا من قره جه حصار الى يكي شهر (٦٩٩ هـ — ١٢٩٩ م) ثم منها الى بورصة (٧٢٦ هـ — ١٣٢٥ م) ثم منها الى ديمتوقه (٧٦٣ هـ — ١٣٦١ م) ولما استصعبوا الاستيلاء العاجل على قسطنطينية انتقلوا الى ادرنة (٧٦٣ هـ — ١٣٦١ م) (٣) فطوقوها تقريباً باملاكهم ثم شرعوا يحاولون الاستيلاء عليها

حاصرها اولاً بيلدرم بايزيد طاغي ٨٠٠ هـ ١٣٩٧ م و٨٠٣ هـ و١٤٠٠ م ولولا اغارة تيمورلنك عليهِ لقضى منها وطراً ولكنهُ عاد عنها مكتفياً باستيفاء عشرة آلاف ذهب سنوياً على ان يحق لهُ زيادة على ذلك ان يبني فيها مسجداً ويقيم محكمة

ثم حاصرها الامير موسى اخو السلطان محمد جلبي (٨٠٦ هـ — ١٤٠٣ م) فالتجأ امبراطورها الى السلطان المذكور فانجدهُ على اخيهِ لما كان بينهما من الشقاق واز احاهُ عنها

ثم حاصرها مراد الثاني (٨٢٥ هـ = ١٤٢٢ م) ولكن عصيان اخيهِ مصطفى صرفهُ عنهُ ايضاً

ثم حاصرها اخيراً السلطان محمد الفاتح (٨٧٥ هـ — ١٤٥٣ م) فتم لهُ ما لم يتم لاحد قبلهُ اذ دخلها عنوة ونقل اليها عاصمة سلطنتهِ فكانت في جملة العوامل لعظمة العثمانية في البر والبحر

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٤٢

(٢) L. Cahun, Introduction de l'histoire de l'asie P. 191.

(٣) سالنامه ازمير ص ١١٠

الدول وقسطنطينية

لم تحسد امة كما حُسد العثمانيون على فتحهم عاصمة البيزنطيين ولاسيما في اوربا فان نزول التركي في طرف اوربا الشرقي واستيلائه على المدينة التي هي بمثابة المدخل للغرب او الحصن المنيع له اغلى مراجل الحقد في نفوس الدول ولا يزال قسطنطينية المحالفات المتواصلة لدفع الغريب واخراجه

ولكن قوة الدولة العثمانية كفلت لها في البداية التغلب على مطامعهم ثم لما شرعت قوتها تضمحل صار لها ايضاً في التوازن السياسي حافظاً

وكان الروس اول الطامعين في عاصمة العثمانيين فانهم اذ طمحوا بان يعتبروا امبراطورية الرومان الشرقية توجهت انظارهم الى عاصمتها ولاسيما في حكم بطرس الاكبر: وفي سنة (١١٨٤ هـ — ١٧٧٠ م) طوق الاسطول الروسي اوربا الغربية قاصداً الى استانبول وبعد ان دمر العمارة العثمانية واتخذ جزيرة لمنوس قاعدة لاعماله الحربية هب الترك لتحصين الدردنيل بادارة البارون دي توت الفرنسوي ولتحويل المراكب الى اسطول حتى قطعوا امل الروس من النجاح فتقهقروا راجعين

ثم لما هب نابليون لاكتساح العالم واتحدت الدول عليه كبر على كل من انكلترا وروسيا ما صار لسفيره سباستياني لدى الباب العالي من النفوذ. ولما لم ترض تركيا ان توافقهما على اخراجه من دار السعادة اشهرتا عليها الحرب (سنة ١٢٢١ هـ — ١٨٠٧) وقبل ان تتمكن العثمانية من تحصين الدردنيل عبر فيه الاسطول الانكليزي للاستيلاء على عاصمتها. ذلك بعث في الترك همة لا توصف وبمعاونة سباستياني اجبروا الاميرال دوكورث الانكليزي على الانسحاب خاسراً مركبين خوفاً من خسارة الجميع فيما لو تم انقطاع خط الرجعة

ثم اتى على ذلك اكثر من قرن ورغم ما اصاب تركيا في اثنائه من الضعف لم يتعرض بعد احد لاستانبول وقد صارت امنع من جهة الاسد ولاسيما في عهد عبد الحميد الثاني الذي كان اهتمامه في تحصين كل من الدردنيل والبوسفور من قبيل المحافظة على سلامته ومعلوم الى اي حد كان لهذا السلطان عناية بالمحافظة على نفسه. وما جرى بعد ذلك من سنة ١٩١٢ الى الآن معلوم لدى القراء

بيروت محمد جميل بيهم